النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

العلوم والصنائع بين نصارى العرب (تابع)

ومما يدلّ على اتّساع فنّ الحدادة بين نصارى العرب وَفْرة اسلحة ملوك الحيرة. فقد ذكر ابو الفرج في الاغاني (٢٠: ١٣٢) انّ النعمان بن المنذر لمّا خاف كسرى وحاول الفرار من وجهه استودع مالهُ هانئَ بن مسعود الشيباني وكان في جملة وديعته «الف شكّة ويقال اربعة آلاف شكّة. والشكّة السلاح كلّه». وكان للنعمان بن المنذر كتائب مدجّجة بالاسلحة الحيريّة اخصّها كتيبتاه الشهباء والدوسر. وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه (٢: ١٨٠): «الباهوت مَسلحة كسرى في الحيرة»

وكانت في بُصرى ايضاً في حوران مصانع اسلحة مشهورة. قال الحصين بن الحُمام يذكر عمرو بن هند ملك الحيرة المعروف بالمحرّق (شرح المفضّليات ص ١٠٨ Ed. Lyall):

عليهنّ فتيانٌ كأنّهمُ محرّقُ ... وكان اذا يكسو أجاد وأكرما
صفائحَ بُصرى أخلصتها فيوضُها ... ومُطّردًا من نَسج داودَ مُبهما
يزُرْن سُمُرًا من رِماحِ رُدَينةٍ ... اذا حُرّكت بَضّت عواملُها دَما

وكانوا يطبعون اسلحتهم ويرسمون عليها النقوش والتماثيل فكان على سيف الحارث بن ظالم صورة حيّتين وانشد (شرح المفضّليات ص ٦١٦):

طَوَتْ بذي الحيّات مَفرِقَ رأسهِ ... وهل يَركبُ المكروهَ الّا الاكارمُ

اراد بذي الحيّات سيفهُ لِما كان عليه من تمثال الحيّات. وذكر الآخر سيفاً عليه صورة سمكة فعُرف بذي النون:

ويُخبِرهُ مكانُ النُّونِ مِنّي وما اعطَيتُهُ عَرَقَ الجَلالِ

﴿التجارة﴾ قد اشتهر العرب منذ القديم بالتجارة كما ورد ذلك في سفر التكوين (٣٧: ٢٥) في قصّة يوسف الحسن الذي باعهُ اخوتهُ للاسمعيليين المتجرين بتجارتهم الى مصر . على انّ هذه التجارة راجت اسواقهـا بعد المسيح بهمّة الامم النصرانيّة المجاورة للعرب لاسيّما الرومان والحبش . وقد سبق لنا (ص٥٧) ذكر الوفد الذي ارسلهُ الى الحيريين الملـك قسطنسيوس ابن قسطنطين الكبير لعقد معاهدة تجاريّة مع ملكهم . وذكرنا هناك ايضاً ما ورد في الدستور اليردوسيّ لثاودوسيوس الكبير بخصوص متاجرة الرومان والحبشة مع العرب

وقد اشتهر نصارى الحيرة بالتجارة . وقد ذكر ابو الفرج الاصبهاني (الاغاني ٢٠: ١٣٤) لَطِيمتهم قال: «وهي عِيرٌ كانت تخرج من العراق فيها البزّ والعطر والالطاف يرسلونها الى اليمن» . وقال في التاج (٩: ٦٠): «اللَّطيمة وعاء المسك او سوقهُ وقيل كلّ سوق يُجلَب اليها غير ما يؤكل من حرّ الطيب والمتاع غير الميرة»

وكانت قريش في الجاهليّة ترتزق بالتجارة وربّما رحلوا الى الحيرة . وقد ذكر في الاغاني (٨: ١٨—١٩) خروج مسافر بن ابي عمرو بن اميّـة من سادة قُريش وابي سفيان بن حرب الى الحيرة لامورهم التجاريّة . وقال الثعالبيّ في لطائف المعـارف (ص ٧—٨ ed. de Jong,) ان هاشماً وهو عمرو بن عبد مناف كان «اوّل من سنّ الرحلتين في التجارة رحـلة الشتاء والصيف وهو اوّل من خرج الى الشام من قُريش ووفد على الملوك وأبعد في السَّفر ومرّ بالاعداء واخذ منهم الإيلاف الـذي ذكرهُ الله تعالى» يُشير الى سورة قُريش (١٠٦: ١ — ٢) حيث يقول: «لإيلاف قُريش إيلافِهم رِحلةَ الشتاء والصيف» . قالوا الايلاف العهد والذمام قال الفيروزابادي: الإيلاف شبه الاجازة بالخفارة واوّل من اخذها هاشم من ملك الشام» . وورد في تفاسير القرآن انّ اصحاب الايلاف كانوا اربعة اخوة وهم بنو عبد مناف اولهم هاشم وكان يؤالف ملك الشام باع منهُ خيلًا فسمح لهُ ان يتاجر في الشام . والثاني عبـد شمس وكان يؤالف الى الحبشة . والثالث المطّلب وكان يرحل الى اليمن . والرابـع نوفل وكان يرحل الى فارس وكان هؤلاء يسمّون المتجرين . وفيهم قال الشاعر:

يا أيُّها الرجـلُ المحوّلُ رحلهُ هلّا نزلتَ بآلِ عبد مناف

الآخذون المهدَ من آفانها والراحلون لرحلة الابلافر
والراشنون وليس يوجد رائش والقائلون هلمَّ للأضيافر
والحالطون غنيهم بفقيرهم حتى يصير غنيهم كالكافي

وقال الثعالبي في ثمار القلوب (ص٩) : «انَّ قريش زهدوا في القصوب فلم يبقَ لهم مكسبةٌ سوى التجارة فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم والنجاشي بالحبشة والمقوقس بمصر وصاروا باجمعهم تجاراً خلطاء» وقال في الاغاني (٨ : ٥٢) : «وكانت ارض الحبشة لقريش متجرًا» . وذكر هناك عمارة بن الوليد المخزومي وعمرو بن العاصي بن وائل السهمي وخروجهما الى النجاشي في الجاهلية للاتجار

وكان للعرب عدَّة اسواق يجتمعون فيها للمقايضات وضروب المبايعات قد ذكرها في المشرق (١ [١٨٩٨] : ٨٦٧) جناب الاديب محمود شكري افندي الالوسي . وكان معظم هذه الاسواق في جهات الجزيرة العربيَّة التي يغلب فيها عدد النصارى في الجاهليَّة واكثرهم من الحضَر يرتزقون بالتجارة كأسواق البحرين في عمان وهَجَر والمشقَّر وصُحار وكأسواق حضرَموت والشِحر وكأسواق اليمن مثل سوق صنعاء وكسوق دَوْمة الجندل وكسوق عُكاظ في الحجاز التي كان يقوم فيها قسّ بن ساعدة واعظاً وخطيباً مصقعاً

ومما لم يذكرهُ هناك من الاسواق العربيَّة النصرانيَّة سوق الحيرة وقد ذكرهُ ابو الفرج في الاغاني قال (١٦ : ٩٩) قال : «وكان بالحيرة سوقٌ يجتمع اليه الناس كلَّ سنة» وروى هناك خروج الحكم بن ابي العاصي اليه ومعهُ عطرٌ يريد بيعهُ واخذ حسّان بن جَبَلة الخير على نفسهِ ان يقدّم للقوم «كلَّ خمرٍ او لحم او طعام ما اقاموا في سوق الحيرة» . وقصد حاتم الطائي هذه السوق ايضاً واظهر فيها شيئاً من كرمهِ الذي ضُرب بهِ المثل بنحرهِ الجزور وإطعام الناس

وما لا يُنكر انَّ اهل اليمن وعمان والبحرين وهَجَر والحيرة كانت تجارتهم واسعةً رابحة ومعائشهم رغدة والخصبُ والرخاء غالبين على اطرافهم مع ما فيها من وفرة الغلّات والذخائر وصنوف المعادن والارفاق بخلاف عرب نجد والحجاز فكانت بلادهم مجدبة قاحلة كثيرة الرمال والصحارى . وقد جاء في سيرة نبيّ الاسلام انهُ تعاطى التجارة في شبابهِ استأجرتهُ خديجة بنت خويلد في مالها فكان يخرج بهِ الى

الشام تاجرًا فرأى اهلها النصارى ودخل صوامع رهبانها وكان محظوظاً في تجارتهِ فدعا ذلك خديجة الى ان تقترن بهِ

وكما كان العرب يخرجون الى بلاد النصارى المجاورة لبلادهم كذلك كان النصارى يقدمون الى الحجاز ويبيعون اهلها محصولات اوطانهم . ولنا على ذلك عدّة شواهد . منها «موقف النصارى» في مكّة قال في التاج في مادّة حسر (٣ : ١٤٠) : «بطن مَحْسر وادٍ قرب مزدلفة بين عرَفات ومِنًى . وفي كتب المناسك هو وادي النار لانهُ موقف النصارى . وانشد نُمر رض حين افاض من عَرَفة الى مزدلفة وكان في بطن مَحسر :

اليكَ يبدو قلقًا وضينُا مخالفًا دين النصارى دينا»

وكذلك «مقبرة النصارى» في مكّة ايضاً ذكرها الازرقي في اخبار مكة (ص ٥٠١) وقال انها دُبر القلع اي الجبل الذي باسفل مكّة على يمين الخارج الى المدينة على طريق بئر عنبسة

ومن سلع تجار النصارى في الجاهليّة وبعدها الخمرُ كانوا يعصرونها ويبيعونها ويشربونها في مجالس الانس . وقد وصفها شاعرهم الاعشى بقولهِ :

وكأسٍ شربتُ على لذّةٍ وأُخرى تداويتُ منها بها
ليعلمَ مَنْ لام انّي امرؤٌ اتيتُ المروءة من بابها

وقد اعتادوا عَصر المدامة لدخولها في مشاعرهم الدينيّة في القربان . كما مر سابقاً . وتغنّوا في معانيها الرمزيّة كما فعل ابن الفارض في ميميّتهِ

وممّا تاجر بهِ نصارى اليمن والعراق والبحرين الجواهر والحجارة الكريمة كالجَزْع والياقوت واللآلئ وقد اشتهر الجَزْع اليمانيّ وقد عُرف ايضاً بالخرز اليمانيّ (Conque de Vénus) وكان يتاجر بهِ اهل ظَفار فنُسب اليهم . قال المرقش الاصغر يصف ظعائن يقطعْنَ القفار :

مجلّيْنَ ياقوتًا وشَذْرًا وصيغةً وجَزْعًا ظَفاريًّا ودُرًّا تَوَالقا

وقد ذكر في الاغاني (١١ : ١٦٣) درْجاً لطلحة الطلحات كان فيه حجارة ياقوت ثمنُ كلّ حجرٍ منها يساوي اربعين الف درهم

وروى البكري في مُعجَم ما استعجم يصف ركوب ملك الحيرة الى دير اللجّ

(ص ٣٦٦) : « وكان النعمان يركبُ في كلّ احواله وفي كلّ عيدٍ ومعهُ اهلُ بيتهِ خاصّةً من آل المُنذِر مَن يُنادمُهُ عليهم حُلَلُ الديباج المذهّبة وعلى رؤوسهم اكاليل الذهب وفي اوساطهم الزنانير المفضّضة بالجوهر وبين ايديهم اعلامٌ فوقها صُلبان الذهب فاذا قضَوْا صلاتهم انصرفوا الى مستشرفة على النجف»

امّا اللآلئ والدُرر الثمينة فكان يغوص عليها اهل البحرين منذ زمن الجاهليّة. قال النابغة الذبيانيّ:

او دُرَّةٍ صَدَفيّةٍ غوّاصها بَهِجٌ متى يَرَها يُهِلُّ ويَسْجُدِ

وقد احسن المسيّب بن علَس في وصفهِ الغائص على اللآلئ وانتخابهِ الثمين بينها واستخراجها من البحر قال (شعراء النصرانيّة ٣٥٦ وخزانة الادب ١ : ٥٤٤)

كجُمانة البَحْريّ جاء بها غوّاصُها من لجّة البَحْرِ
صَلْبُ الفؤادِ رئيسُ اربعةٍ متخالفي الألوان والنَّجْرِ
فتنازعوا حتّى اذا اجتمعوا ألقَوا اليهِ مقالدَ الأمرِ
وعلَتْ بهم سَجْحاء خادمةٌ (١ خوصٍ بهم في لُجّةِ البحرِ
حتّى اذا ما ساء ظنُّهمُ ومضى بهم شهرٌ الى شهرِ
ألفى مرابئهُ بتهلكةٍ ثبَتَتْ مراسيها فما تَجْري
فاصابَ أسْقُفَ راسبٍ لَبِدٌ تُرعت ربا غيناءُ للصَّبْرِ (٢
أشفى يَمُجُّ الزيتَ (٣ ملتبسٌ ظمآنُ ملتهبٌ من القَفْرِ
قَتَلتْ اباهُ فقال أتبعُهُ أو استفيدَ رغيبةَ الدهرِ (٤
نصفَ النهار الماءُ غامرُهُ وشريكُهُ بالغَيْبِ ما يدري
فاصاب مُنْيَتَهُ فجاء بها صدفيّةً كصُفيحةِ الجَمْرِ
يُعطى بها ثمناً فيمنعُها ويقول صاحبُهُ ألا تشري
وترى الصواري (٥ يسجدون لها وبنصفها يسديهِ للنحرِ
فلتلك شبهُ المالكيّةُ اذ طلعت بهجتها من الخدرِ

(الهُ بقيّة)

---

١) اراد بالسجحاء السفينة الطويلة الظهر ٢) اي رمى بنفسهِ في البحر وغاص لإخراج الدُرّر. والأسقفُ الطويل المنحني ليغوص. واللَّبِد اي المتلبّد ٣) اراد بالزيت الماء اي اشرَف يقذف الماء من فيهِ كعادة الغائص ٤) يريد انّ ابا هذا الغائص هلك في تحصيل هذه الدرّة غرقاً فقال ابنهُ اتبعُهُ او انالها ٥) الصواري جمع صارٍ وهو الملّاح والبحري. ويُروى: الشواري جمع شارٍ اي المشتري. وسجودهم لفخر الدرّة ونفاستها